الخطاب الإصلاحي في تلمسان خلال القرن 8هـ/14م من خلال واسطة السلوك لأبي حمو الزياني.

د سعيد بنحمادة*

يعود العمق الحضاري للقرن 8هـ/14م في الغرب الإسلامي إلى هزيمة الموحدين في معركة العُقاب سنة 609هـ/1212م، التي أفضت إلى التفكك السياسي ببلاد المغرب والأندلس[1]، مما جعل أحداثها تندرج ضمن "أزمة القرن الرابع عشر"[2]، الذي اعتبر لذلك من أسوأ العصور التي عرفتها حضارات البحر الأبيض المتوسط[3].

ومن مظاهر ذلك التحول بروز كيانات سياسية وريثة للحكم الموحدي؛ إذ عرفت الأندلس "عصر الطوائف الثالث"، قبل استقرار الأمر لبني الأحمر، والمرينيين بالمغرب الأقصى، وبني عبد الواد بالمغرب الأوسط، والحفصيين بإفريقية.

وكان من البديهي أن يعرف القرن 8هـ/14م، في ظل هذه التحولات السياسية والعسكرية، إنتاجا يهدف إصلاح الدولة والمجتمع والثقافة بالغرب الإسلامي؛ من قبيل "الإشارة إلى أدب الوزارة"، و"مقامة في السياسة" للسان الدين بن الخطيب (ت. 776هـ/1374م)، و"الشهب اللامعة في السياسة النافعة" لابن رضوان (ت. 782هـ/1380م)، و"واسطة السلوك في سياسة الملوك" لأبي حمو الزياني (ت. 791هـ/1388م)، و"عين الأدب والسياسة في زين الحسب والرياسة" لابن هذيل الأندلسي، و"المقدمة" لابن خلدون (ت. 808هـ/1405م).

وتدخل هذه المصنفات ضمن كتب الأحكام السلطانية، التي تعد بمثابة فكر سياسي عملي، قائم على التجربة، عبر مبدأ النصيحة، المستمدة من المرجعية الفارسية واليونانية والإسلامية[4].

ومن ثم جاء اهتمامنا بـ"واسطة السلوك في سياسة الملوك" لأبي حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن (760- 791هـ/1358- 1388م)، أحد سلاطين دولة بني عبد الواد بتلمسان. غير أن ما يهمنا ليس سيرة هذا الملك، ولا التاريخ السياسي للدولة الزيانية بالمغرب الأوسط،

*- أستاذ باحث- الرشيدية- المغرب.

بقدر نتوخى التركيز على الخطاب الإصلاحي كما يراه حاكم تلمسان، في إطار ما سمي بــ"النظرية السياسية للسلطان أبي حمو الزياني الثاني"[5]، من خلال الكتاب المذكور.

والكتاب عبارة عن وصايا سياسية عملية خص بها أبو حمو الزياني ولي عهده؛ إذ يقول محددا غرض الكتاب: ((فرأينا أولى ما نحف به ولي عهدنا، ووارث مجدنا، والخليفة إن شاء الله من بعدنا، وصايا حكمية، وسياسة عملية علمية مما تختص به الملوك، وتنتظم بها أمورهم انتظام السلوك في سياسة الملوك؛ ولذلك سميت هذا الكتاب بواسطة السلوك في سياسة الملوك، ليكون اسمه يوافق مسماه، ولفظه يطابق معناه))[6].

وبذلك فالمصنَّف يندرج ضمن كتب "العهود"؛ فهو وصية سياسية يثبت فيها سلطان تلمسان طرق الحكم وآليات التدبير السياسي والاقتصادي والاجتماعي للدولة، مما يجعل منه دليلا عمليا، وأخلاقيا وسياسيا، هدفه تبيين الصفات الخلقية والأسس السياسية الواجب اتباعها من قبل ابنه للحفاظ على الحكم بتلمسان، وهو ما أعطى للسياسة الموصى بالاهتداء بها مفهوما تقنيا[7].

وقد حظي كتاب "واسطة السلوك" باهتمام الباحثين المعاصرين، في إطار القراءات المتباينة للآداب السلطانية عموما[8]؛ إذ منهم من تتبع بدقة مصادر الكتاب، وأسلوبه، والإطار التاريخي الذي ألف فيه، من خلال التركيز على دولة بني عبد الواد بتلمسان خلال القرن 8هــ/14م، وبالأخص زمن أبي حمو[9].

وقد اختار أبو حمو تقنية النصيحة أو التمثيل التارخي؛ فإذا كانت معظم كتب الأحكام السلطانية تزاوج بين التصورات النظرية والوقائع في صياغة متوهما، فإن كتاب "واسطة السلوك" يقوم بالإساس على التاريخ والتجربة السياسية والعسكرية لسلطان تلمسان نفسه، أكثر من اعتماده على التجارب الساسانية واليونانية والإسلامية السابقة.

كما أن بنية التأليف في الكتاب تستند إلى "شبكة فعلية للتفاعل النصي"، أي بؤر التناص المتداخلة فيه؛ إذ نقل من "سراج الملوك" للطرطوشي في 20 موضعا، ومن "العقد الفريد" لابن عبد ربه في 7 مواضع، ومن "المنهج المسلوك في سياسة الملوك" للشيزري في 7 مواضع أيضا، ومن كتاب "سلوان المطاع في عدوان الاتباع" لمحمد بن ظفر المالكي في 3 مواضع[10].

وقد أثنى المقري على الكتاب؛ فهو في نظره ((تأليف حسن في السياسة، لخص فيه "سلوان المطاع" لا ظفر، وزاد عليه فوائد، وأورد فيه جملة من نظمه، وأمورا جرت له مع معاصريه من ملوك بني مرين وغيرهم، وصنّفه برسم ولي عهده أبي تاشفين))[11].

ومن تم فالكتاب هو بمثابة مذكرة سياسية، تروم إصلاح الدولة والمجتمع والاقتصاد، لاستمرار الدولة الزيانية بتلمسان. إلا أن هذا الخطاب الإصلاحي يجعل من أخلاق السلطان قطب الرحى، وهو ما

يبدو جليا من خلال أبواب الكتاب وأقسامه، التي فصلت في شخص السلطان، و سلوكه مع بطانته، ورعيته، ونظرائه من الملوك، وخاصة الباب الثالث المتعلق بـ"الأوصاف المحمودة التي هي نظام الملك وجماله وبهجته وكماله، وهي قواعد أربعة: الشجاعة والكرم والعفو والحلم"[12].

لقد أعاد أبو حمو بالإخلاق إلى أهمية العقل؛ "فالملك بالنسبة إلى العقل على أربعة أقسام؛ ملك له عقل يصلح به دنياه وأخراه، وملك له عقل يصلح أخراه دون دنياه، وملك له عقل يصلح به دنياه دون أخراه، وملك له عقل لا يصلح به دنياه ولا أخراه؛ ... فإذا كان الملك على هذه الخصال التي ذكرناها؛ والأوصاف التي بيّناها، اقتضى ملكه الدوام، وأجمع على محبته الخاص والعام، ورجئ له النصر في كل مقام، وتسنى له الظفر بكل المرام؛ فإن مات بقي ذكره دائما والثناء عليه قائما"[13].

وهكذا يتضح أن أبا حمو لم يخرج عن المألوف في الخطاب السلطاني، لما ربط بين قوة الدولة واستمرارها بالبعد الأخلاقي في شخصية السلطان. بل إن تلك الكتابات حين تتحدث عن "أخلاقيات السلطة" لا تطرحها بمنظور تطوري مواكب لعمر الدولة، كما فعل ابن خلدون، وإنما من خلال رؤية سكونية مرتبطة بمدى نفعها أو ضررها للسلطان، دون الخروج بها عن "نظم القيم" في العقل الأخلاقي العربي[14].

غير أنه، وبقدر تركيز أبي حمو على الجانب الأخلاقي، وخاصة ما تعلق بالكرم[15]، فإن الرواية المرينية تطفح بمعلومات عن جوانب من شخصية سلطان تلمسان؛ فحسب تلك الرواية، أنه كان "بخيلا مسيكا، لا يرى في وقته أبخل منه، وكان كذابا لا ينطق بكلمة حق، غدارا خائنا غشاشا، إذا عاهد خان، وإذا وعد أخلف"[16]، وتضيف الرواية المرينية، بنوع من التحامل، أن "بخله لم يسمع لغيره من الملوك وغيرهم، كان يذبح في كل يوم رأسا من الضأن فيأكل نصفه ويبيع نصفه بالسوق"[17].

كما نجد أبا حمو يركز على الحاشية؛ ويقصد بها المراتب أو الوظائف بنوعيها الديني والدنيوي، والتي تشكل خدام السلطان وأعوانه، مركزيا ومحليا؛ إذ أدرك سلطان تلمسان أهمية الحاشية الملكية؛ فأوصى بها ابنه، جاعلا ذلك من أركان الدولة؛ مركزا على الوزراء والجلساء والكتاب وأصحاب الأشغال والفقهاء والقضاة والأعوان وقواد الجند والعمال وصاحب الشرطة والسفراء[18].

وإذا كان كتاب "واسطة السلوك" لا يختلف عن باقي مؤلفات الآداب السلطانية في الاستناد إلى ركائز السلطة؛ فإن التباين يكمن في ترتيبها حسب أبي حمو الزياني الذي أعطى الأولوية القصوى لـ"الجند"، على حساب "العمارة"، وهو ما يعزى إلى الطابع الحربي لبني عبد الواد في عهد السلطان المذكور[19]، بل إنه يربط النظم العسكرية بالبعد القبلي[20]؛ مما يفسر أهمية العصبية في هذه الفترة التاريخية، ليس في دولة بني عبد الواد بتلمسان، وإنما بالغرب الإسلامي كله.

وبالمثل فإن الدولة، في نظر أبي حمو، تتوقف على وجود نخب سياسية وإدارية وثقافية، تتوفر فيها شروط الأخلاق، والكفاءة المهنية، والرأسمال الاجتماعي، من خلال تنصيص حاكم تلمسان على ضرورة انتماء بعض كبار رجال الدولة إلى قبائل وأسرة وجيهة وبيوتات معروفة، ليكون ذلك مساعدا للموظف على التتره عن الفساد؛ فكون الوزير مثلا من "خيار قومه وعشيرته، فإنه يكون محافظا على بيته ومروءته، مجانبا للنقائص والشبهات، متترها عن المعايب في جميع الحالات"[21].

كما تزودنا المذكرة الإصلاحية بتوصيات مرتبطة بالعلاقة بين السلطان وشركائه المدنيين والعسكريين، مثل الجنود والمتطوعة، فيما يخص شؤون العطاء والتموين وتدبير قضاياهم الاقتصادية والاجتماعية. وهو ما دفع أحد الدارسين[22] إلى حصر وظيفة الدولة في العصر الوسيط في جمع الضرائب وممارسة العنف، مما يرسخ جدلية المال والجيش في النظرية السياسية لدى أبي حمو الزياني.

غير أن ما يطفح به الكتاب هو التجربة السياسية والعسكرية لأبي حمو، ومنها المعركة التي دارت بين بني عبد الواد والمرينيين قرب تلمسان سنة 760هـ/1358م، وكيف انتصروا عليهم، ونعم بنو عبد الواد بالاستقرار، رغم قوة المرينيين: "فاستقللنا بحضرتنا العلية، والبلاد كلها مرينية. واستولينا على ما كان بتلمسان، واستقر لنا بها الملك والسلطان، ومرين محدقة بنا من كل جهة ومكان؛ ليس بيننا وبينهم إلا مسيرة يوم أو نصف يوم. ومن شدة الحزم لم تكتحل أجفاننا بنوم؛ فلم نزل ... نستعمل معهم المحاولات والمكائد، وننصب لهم الأشراك بكل المراصد، إلى أن استخلصنا جميع بلادنا من أيديهم، وجازيناهم على تعديهم. وذلك بين محاولة وقهر وتأييد ونصر. ولقد دخلناها عليهم دون كثير جيش، ولا مال؛ فبلغنا بالسياسة والمحاولة غاية الآمال إلى أن صارت أموالنا أكثر من أموالهم، وأحوالنا أحسن من أحوالهم، وأعدادنا أكثر من أعدادهم، وأجنادنا أوفق من أجنادهم، وبلادنا أمهد من بلادهم"[23].

وفي الميدان السياسي والديبلوماسي والعلاقات الخارجية مع الدول، يستلهم أبو حمو تجربته كذلك لتوجيه ابنه، وخاصة فيما يخص التجسس وبث العيون والإيقاع بالعدو؛ فيذكره بما حصل له مع المرينيين من حروب وتجسس، وخاصة في عهد السلطان أبي سالم، مثلما أخبره بهزيمة أبي الحسن المريني في إفريقية وغرق أسطوله[24]، كما يحضر البعد التاريخي في الكتاب من خلال تاريخ الأندلس؛ مثل الاستراتيجية الحربية التي نهجها ابن هود للإيقاع بابن رذمير بوشقة؛ وانتصارات المنصور بن أبي عامر خلال القرن 5هـ/11م[25].

وإذا كان أبو حمو قد لمز إلى الصراع بين بني عبد الواد والمرينيين، وأكد لابنه أهمية الشجاعة في تدبير الملك[26]؛ فإن هؤلاء لم يغفلوا الأمر، وحاولوا النيل من القدرات الحربية لسلطان تلمسان؛ ففي نظرهم أنه "كان جبانا لا يقدر على مدافعة الجيوش المرينية خوفا على نفسه"[27]؛ إذ "ما رئي يجري فرسه

قط، فإن اعتذر عن ذلك من رزانته فليس الأمر كذلك، إذ من شأن الملوك الكبار الذين هم أكبر قدراً منه في الحسب وضخامة الملك أن يلعبوا مع خدامهم الموالي بجري الخيل بقصد الثقافة ومعرفة ركض الخيل. وهذه عادة مطردة لهم، ومن لا يفعل ذلك منهم فهو خواف على نفسه أن يقع من الفرس من جهله بالفروسية"[28].

كما أن من ملامح البناء الفكري لكتاب "واسطة السلوك"، توظيف أبي حمو للبعد السياسي لاحتفالات بني عبد الواد بالمولد النبوي، ورسالة الأشواق التي بعثها إلى النبي صلى الله عليه وسلم[29].

ومن مظاهر التدبير العملي الذي يوصي به أبو حمو، علاوة على المعايير الخلفية والكفاءة، ما يمكن نعته بالاستعلامات؛ ففي تعيين الوزير قال: "ومع ما ذكرنا من الاختيار، فلا تخليه من الاختبار"[30]، كما ينصحه بالأمر نفسه فيما يخص العمال؛ إذ يوصيه بعدم الإفراط في الثقة في العمال؛ "وقد جرت عادة الخلفاء والملوك باختبار العمال في جبايات الأموال"[31].

وبناء على ذلك، فإن كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" يمثل أنموذجا للمذكرات السياسية والخطاب الإصلاح، للنهوض بالأوضاع العامة بتلمسان خلال القرن 8هـ/14م، في مناخ إقليمي ينذر بالتحول في الجناح الغربي للحوض المتوسطي، الذي سينتقل منه الثقل الحضاري إلى المحيط الأطلسي، و"كأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث"[32].

وقد عملنا على إبراز ذلك من خلال إعادة تركيب فقرات الكتاب لتبيين النظرية السياسية لأبي حمو الزياني، وفق أبواب وفصول؛ فقسمنا الوثيقة المستخرجة من "واسطة السلوك" إلى أبواب، منها الباب الأول الخاص بقواعد الحكم، ويشمل فصول العدل، والمال، والجيش؛ والباب الثاني المتعلق بأخلاق السلطان، ويضم الفصول الخاصة بالعقل، والشجاعة، والكرم، والحِلم، والعفو؛ والباب الثالث المرتبط بموظفي الدولة، ويهم الوزراء، والحاشية، والكُتّاب، وصاحب الأشغال، والفقهاء، والقضاة، والأعوان، والقواد، والعمال، والحرس الملكي، ومماليك الملك؛ أما الباب الرابع فخاص بالحكامة السياسية؛ والباب الخامس المتعلق بالسياسة الحربية. وفي ما يلي نص المذكرة:

الباب الأول: قواعد الحكم

العدل

– ((الملك بناء والعدل أساسه؛ فإذا قوم الأساس، دام البناء، وإن ضعف الأساس انهار البناء؛ فلا سلطان إلا بجيش، ولا جيش إلا بمال، ولا مال إلا من جباية، ولا جباية إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل؛ فالعدل أساس. ومن استعمل العدل حصن ملكه؛ ومن استعمل الظلم عجل هلكه)).

- ((إذا تقرر أن العدل أس الدولة، وإقامة الملة، ورأس السياسة، ومدار الرياسة؛ فالملك بالنسبة إليه على أقسام: أن يكون الملك عدلا في نفسه، عدلا في رعيته وأهله وخاصته؛ أن يكون الملك جاريا مع الرعية على العوائد المألوفة، والأحوال المعروفة، من غير خرق، ولا إحداث زيادة، مقلا على أموره الدنيوية، وإن كان مفرطا في بعض الأمور الأخروية)).

- ((العدل سراج الدولة؛ فلا تطفئ سراج العدل بريح الظلم)).

- ((صلاح الدولة بقواعدها، وفسادها بخرق عوائدها)).

- ((أربعة لا يزال معها المُلك: حسن التدبير في الأمور؛ والعدل في الخاصة والجمهور؛ والأخذ بالحزم؛ والصبر في الأزم.

أربعة لا يثبت معها المُلك: سوء التدبير؛ ومخالفة النصيح والمشير؛ وخبث السريرة والنية؛ والجور على الرعية)).

- ((العدل نِعْم ما يجتنى، والجور بئس ما يقتنى، والعدل كنز الأمير، وحياة الغنى والفقير)).

- ((الأمير العاقل لا ينفذ فيه قدح أهل البغي؛ فمن انقطع إليه ولازمه كالجوهر المضيء بنوره، لا تطفئه عواصف الرياح)).

المال

- ((المال حرز الملك، وبه ينتظم انتظام السلك؛ فاحرز حرز مالك بتقليل الثناء، وتصرف فيه تصرف أهل العقل والذكاء)).

- ((ابذل مالك في الثناء، فإنه خير من الغنى، ولا تكثر فيه السرف، فإنه يؤدي إلى التلف، ثمّ مالك تبلغ آمالك؛ فإن من قلّ ماله تلاشت حاله، وقلت أعوانه، وضعفت أنصاره)).

- ((المال زين والإقلال شين، والمال عون على العذى، وحصن يتقى به من الرذى، به يستفتح الصياصي وتستملك النواصي، ويقاد العاصي، ويستدنى القاصي. وبالمال تستعبد الرجال، وتبلغ الآمال، وتدل به الرقاب، وتستفتح به الأبواب، وتستهل الأمور الصعاب، وتنال الرغائب، وتنجو به من المصائب)).

- ((خير المال ما وقع به الانتفاع، وشر المال ما تركْته للضياع؛ فاجمعه من مواضعه ووفره، وقوّ مادته بالعدل، وتوسط في العطاء والبذل)).

جبهة التحرير بالمغرب، عين نائبا لرئيس فدرالية الجبهة بالمغرب، شارك في مؤتمر طرابلس عام 1962م. وابتعد بعد الاستقلال عن الحياة السياسية[14].

9- قزان الجيلالي (سي عفان): قيادي في الولاية الخامسة.

ولد بالخميس قرب تلمسان عام 1935م، درس بالكتاب ونشأ في أسرة محافظة، ارتبط بنشاط الحركة الثورية مبكرا حيث كانت قريته الواقعة على الحدود تستقطب كثيرا من الوطنيين، ومنهم بوالصوف، انخرط في تحضير العمل الثوري بالمنطقة تحت إشراف سي جابر، بدأ مشواره النضالي بالعمل السياسي والتحق في نوفمبر 1955م بجيش التحرير الوطني، كلف بعدة مهام ثورية، وعين بعد مؤتمر الصومام عضوا في قيادة أول فيلق شكل بالمنطقة، شهد العديد من المعارك، وفي أواخر افريل 1957م أشرف على نقل عبان ودحلب من سيدي بلعباس الى الحدود المغربية، فضل الاستقرار في المنطقة الاولى داخل الوطن بدل الانتقال الى القاعدة الخلفية بالمغرب، وظل فيها الى غاية وقف اطلاق النار، عين بعد استشهاد سي جابر في فيفري 1958م مسؤولا عن ناحية سبدو، وكان تابعا لقائد المنطقة سي الزوبير، وقد اختاره هذا الاخير ليكون عضوا في قيادته مكلفا بالاتصال والأخبار، وكان يساعده في إدارة شؤون الثورة وفض بعض النزاعات التي كان يتورط فيها سي الزوبير، وكان ينوب عنه في خرجاته الكثيرة الى المغرب، والتي كانت آخرها الخرجة التي أعلن فيها التمرد نهاية عام 1959م، وكان مصيره الإعدام، تولى بعدها سي عفان قيادة المنطقة الأولى، وكلف بعدها بمسؤولية التنسيق بين المناطق، ورقي بعدها إلى رتبة رائد عضوا في قيادة الولاية، وقد عمل مع الرائد عباس مشرفا على قيادة الولاية الخامسة بالداخل منذ نهاية عام 1961م، وخاض خلالها العديد من المعارك الكبرى والاشتباكات، بعد وقف إطلاق النار تولى الإشراف على قيادة الولاية إثر خروج قيادتها إلى طرابلس، وكان شاهدا على صراع المرحلة الانتقالية بين هيئة الأركان وقيادة الداخل في الولاية الخامسة، وهو ما أثار تذمره وجعله يفضل التخلي عن الخدمة العسكرية.

عين عضوا في أول مجلس تأسيسي، وتعرض للتهميش في عهد بومدين، وعين عضوا في المكتب السياسي للجبهة خلال مؤتمرها الرابع، وما يزال على قيد الحياة[15].

10- لواح محمد بن احمد (سي فراج): عضو قيادة الولاية الخامسة وشخصية ثورية مرموقة السمعة.

ولد عام 1936م في غورايا ناحية سبلو التابعة لتلمسان، زاول دراسته الأولى بالكتاب وبالمدرسة الابتدائية بمسقط رأسه، وانتقل إلى مدينة الخميس لمواصلة الدراسات الشرعية. وفي سنة 1952 عاد إلى مسقط رأسه ليمارس مهنة التعليم، وانخرط في حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، وأصبح عضواً عاملاً في خلايا المنظمة الخاصة.

التحق بصفوف الثورة مبكرا، وشارك بفعالية في تنظيم العمليات العسكرية بوهران ابتداء من أكتوبر 1955، وكان على رأس فرقتين مسلحتين وهو لم يبلغ بعد سن العشرين من العمر، تمكن من إرساء التنظيم وإنجاح العمليات العسكرية، واعترفت قيادة الولاية الخامسة بمواهبه وقدراته الحربية فعينته في ماي 1958 قائداً للمنطقة الخامسة، ثم عضواً في قيادة الولاية الخامسة برتبة رائد. بذل جهوداً كبيرة في مواجهة المخططات الفرنسية بالمنطقة الخامسة، وخاض معارك واشتباكات عنيفة في جبال سبلو ومرباح وجبل يوسف، عرف بأخلاقه الرفيعة وتواضعه وأشتهر بحنكته السياسية وثقافته الواسعة.

كان رفقة قائد الولاية سي لطفي في طريق العودة من اجتماع المجلس الوطني للثورة عندما اكتشفت القوات الفرنسية طريقهما، وواجهتهما في معركة ضارية بجبل بشار يوم 25 مارس1960 فكانت نهاية البطلين بعد حياة حافلة بالبطولات والانجازات[16].

11- تيجاني هدام: شخصية سياسية وتاريخية مرموقة، ولد في جانفي 1921 بتلمسان، واصل دراسته العليا في الطب وشارك في النضال الطلابي، التحق بصفوف الثورة التحريرية بداية سنة 1955، كان مقربا من ابن بلة وعمل مساعدا له في الوفد الخارجي بالقاهرة، وبعد اعتقال ابن بلة شارك في تأدية عدة مهام سياسية وعسكرية، بعد الاستقلال تولى عدة مسؤوليات عليا: منها وزيرا للشؤون الدينية سنة 1964، ثم وزيرا للصحة سنة 1965، وعميدا لمسجد باريس، عاد إلى أرض الوطن واشتغل أستاذا للطب بجامعة الجزائر، عين في جانفي سنة 1992 عضوا في المجلس الأعلى للدولة[17].

* ثالثا: النخب الطلابية: ساهمت النخبة الطلابية بدور فاعل في الحركة الوطنية وثورة التحرير الكبرى ، ومن رموزها البارزة عدد من المجندين في الجزائر والمغرب اثر الإضراب الطلابي، ومنهم نذكر:

1- خميستي محمد: أمين عام الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين. وأول وزير للخارجية في عهد الاستقلال.

ولد يوم 11 أوت 1930 بمغنية ولاية تلمسان، درس المرحلة الثانوية بوهران، ودخل كلية الطب بمونبيليه الفرنسية، وهناك ساهم في نشاط الطلبة الجزائريين، وانتخب ضمن قيادة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في أوائل سنة 1956، ألقي عليه القبض يوم 12 نوفمبر 1957 وهو طالب بجامعة مونبيليه، وبعد أسابيع من التعذيب نقل إلى سجن برباروس، وقد وجهت له تهمة القيام بنشاطات سياسية للمس بالأمن العام الفرنسي، أطلق سراحه بعد سنتين ليعود إلى نضاله ويتم دراسته في الطب، انتقل إلى المغرب وعمل في فدرالية جبهة التحرير الوطني بقاعدة المغرب، عين عضوا في اللجنة التنفيذية المؤقتة، وانتخب سكرتيرا عاما لرئيسها فارس عبد الرحمان، وبواسطته كانت قيادة الثورة تطلع على ما يجري من تطورات.

ساند ابن بلة، وقد شارك بعد أزمة صيف 1962 في انضمام الجزائر في هيئة الأمم المتحدة، عين نائبا في المجلس الاستشاري، ووزيرا للخارجية إلى غاية أفريل 1963، حيث اغتيل في ظروف غامضة[18].

2- شريف بلقاسم: مناضل وسياسي محنك، تولى مسؤوليات قيادية في جيش الحدود الغربية وفي الحزب والدولة في عهد الرئيس هواري بومدين .

ولد عام 1930 وهاجرت به عائلته إلى المغرب، أتم دراسته الاكمالية والثانوية بالدار البيضاء وانتسب لكلية الحقوق بالرباط، ولما اندلعت الثورة التحريرية التحق بصفوفها عام 1955، عين في البداية مسؤولا عن الطلبة الجزائريين في المغرب، ثم قائدا على منطقة صبرة بتلمسان، وتولى في عام 1959م قيادة المنطقة الأولى من الولاية الخامسة (تلمسان). التحق بقيادة هيئة الأركان في وجدة، وكلفه بومدين بالإشراف على معسكرات التدريب والتاطير، عين عضوا في قيادة المنطقة الشمالية التي كلفت بدخول تراب الولاية الخامسة، وعشية الاستقلال ساهم في تجنيد قيادة الجيش وبعض السياسيين لدعم تحالف هيئة الأركان- بن بلة، وكان واحدا من مجموعة تلمسان.

عين بعد الاستقلال عضوا في المجلس التأسيسي ثم وزيرا للإرشاد القومي، شارك في انقلاب 19 جوان 1965م وعين عضوا في مجلس قيادة الثورة ووزيرا للمالية، كان مساعدا لبومدين في تطبيق سياسته الزراعية والصناعية، وفي عام 1975 حدثت اختلف معه، غادر الجزائر ليعود بعد سنة 1988م لمراقبة الساحة السياسية، وقد توفي مؤخرا(19).

3- رحال منصور: ضابط في جيش التحرير الوطني ومخابر بالولاية الأولى.

ولد عام 1938 بمدينة وجدة المغربية، من أسرة تعود في أصولها إلى ندرومة، نشا في وجدة وبها درس، شارك في إضراب 19 ماي 1956 وهو طالب في الصف الثانوي والتحق بصفوف الثورة، فاختير ليكون ضمن الفوج الثاني الذي دخل مدرسة الناظور للاتصالات السلكية واللاسلكية، وبعد تخرجه في ماي 1957 نقل إلى تونس لمباشرة عمله.

في نهاية عام 1957 أرسل إلى ولاية الاوراس للعمل في ميدان الاتصالات، واستقر في المنطقة الثانية التي كان يقودها علي النمر، وقد بذل جهود كبيرة في ربط الاتصالات بين قيادة الولاية الأولى وقيادة الثورة في الخارج وتذليل كثير من الصعوبات، تعرف على كثير من قيادات الثورة، وكان شاهدا على كثير من الأحداث التي نقلها لنا في مؤلفه "الثوار" الصادر عام 2000، وخاصة ما تعلق بالصراع الذي شهدته الولاية الأولى وتصفية المشوشين، والصعوبات التي واجهها العقيد لخضر عبيدي، وانعكاسات خطة شال على ولاية الاوراس.

واصل تأدية مهامه إلى غاية استرجاع السيادة الوطنية، وبعد الاستقلال فضل الابتعاد عن السياسة، أكمل دراسته وعمل في ميدان الهندسة المعمارية، وهو ما يزال على قيد الحياة[20].

4- عبد العزيز بوتفليقة: قيادي بجيش الحدود وبالجبهة الجنوبية، ورئيس الجمهورية الجزائرية الحالي.

ولد سنة 1935 بمدينة وجدة المغربية من أسرة مهاجرة تعود أصولها الى ندرومة، نشأ بوجدة في أسرة فقيرة، واصل تعليمه في معهد مولاي إدريس الثانوي.

التحق بصفوف الثورة عام 1956م في المغرب، وعمل ضابطا في الولاية الخامسة مكلفا بالنشاط السياسي، واختاره قائد الولاية هواري بومدين ليكون أمين سر الولاية ومساعده في تسيير شؤون الولاية، وانتقل معه للعمل في القيادة العامة للجيش بالحدود الغربية، كلفه قائد هيئة أركان الجيش في بداية عام 1960م بفتح جبهة جنوبية في أقصى الصحراء، فوفق في قيادة هذه الجبهة وإنجاح مهامها.

وفي ظل صراع هيئة الأركان مع الحكومة الجزائرية المؤقتة منذ جويلية 1961م تولى مسؤوليات حساسة منها خلافة الثلاثي المستقيل من هيئة الأركان، كان محل ثقة هواري بومدين وقد أدى له المهمات الحساسة، ومنها الاتصال بالزعماء الخمسة المعتقلين في فرنسا بقصد عقد التحالفات المستقبلية، وقد تحاور مع بوضياف وبن بلة ومال إلى كفة هذا الأخير.

بعد الاستقلال عين الرائد بوتفليقة عضوا في المجلس التأسيسي ووزيرا للشباب والرياضة، وتولى سنة 1963م وزارة الخارجية التي قضى على رأسها ستة عشر عاما، أزيح من قبل فريق الشاذلي بن جديد عام 1979م فهاجر خارج الوطن، عاد بعد عشرين سنة لينتخب رئيسا للجمهورية الجزائرية، وقد انتخب عام 2004 لعهدة ثانية، ولعهدة ثالثة في 2009م[21].

5- رحال عبد اللطيف: من عائلة مناضلة، بدأ مشواره النضالي في صفوف أحباب البيان والحرية ثم تحول إلى جمعية العلماء، وتأثر بالأفكار الثورية.

كان طالبا عندما التحق بصفوف الثورة، وقد شغل العديد من المسؤوليات السياسية والعسكرية.

عشية وقف إطلاق النار عينته قيادة الثورة عضوا في الهيئة التنفيذية المكلفة بإدارة الشؤون الإدارية وتسليم السلطات. وبعد الاستقلال عين مديرا لديوان الرئيس بن بلة، وكلف بعدها بعدة مسؤوليات دبلوماسية، سفيرا وممثلا للجزائر في الهيئات الدولية، ثم تم تهميشه في عهد الشاذلي بن جديد. وكلف في عام 1991م بوزارة الداخلية، وعينه الرئيس بوتفليقة مستشارا سياسيا له.

6- الطاهر الزرهوني: ولد بندرومة، زاول تعليمه الابتدائي والمتوسط بالغتين، شب على مبادئ الوطنية، وتجند مبكرا في صفوف الثورة الجزائرية، والتحق بعد الإضراب الطلابي بصفوف جيش التحرير الوطني، خاض العديد من المعارك وأصبح ضابطا في صفوف الجيش.

بعد الاستقلال تولى عدة مسؤوليات منها وزارة التعليم خلال سبعينيات القرن العشرين، ما يزال على قيد الحياة[22].

7- يزيد زرهوني: ولد بندرومة، من اسرة محافظة وعلمية، درس بمسقط رأسه وبالمغرب، التحق مبكرا بصفوف الثورة وهو طالب، تلقى تكوينا في الاتصالات السلكية واللاسلكية، عين ضابط اتصالات، بعد الاستقلال تولى عدة مسؤوليات منها وزارة الداخلية.

* رابعا: النخب النسوية: قامت المرأة التلمسانية بأدوار مختلفة ابان الثورة التحريرية، يمكن الوقوف عليها في قسمين، الأول خاص بالنضال في المدن والثاني بالنضال في الأرياف؛ ففي مدينة تلمسان ومراكزها الحضرية اعتمد العمل الفدائي على المرأة في تأدية مهام حيوية، منها وضع المتفجرات في مراكز العلو والملاهي والمقاهي التي يتردد عليها غلاة المستوطنين والحركة، ونقل

المعدات والأسلحة والوثائق السرية من مكان لأخر داخل المدينة وخارجها، وكذا جمع الاشتراكات وتوزيع النفقات على مستحقيها من أسر الشهداء، والقيام بالدعاية والتعبئة بين أوساط النساء.

وفي الأرياف كانت المرأة حاضنا أساسيا للثوار، فهي توفر لهم المأوى، وتقدم لهم الأخبار والمستجدات، وتجمع لهم المؤونة وتحضر لهم الأكل، وقد نهضت المرأة في مناطق تلمسان الاستراتيجية بأدوار مضاعفة، وذلك نتيجة للوجود المكثف لجيش التحرير الوطني وكثافة النشاط المسند لها كونها منطقة حدودية ومنطلق للنفوذ الى باقي مناطق الولاية الخامسة.

وتؤكد لنا الشهادات أن عدد مهما من الفتيات المثقفات التحقنا بصفوف الثورة منذ اضراب الطلاب عام 1956م، وتلقين تكوينا سياسيا وعسكريا بمنطقة تلمسان وفي قاعدة وجدة، وعدن الى المنطقة الثانية (تلمسان ونواحيها) للمشاركة في صفوف جيش التحرير الوطني وبين أوساط المدنيين، ومنهن نذكر: حميدو مليحة، ورحال لطيفة، وحجاج مليكة، وأنيسة بركات، وجميلة مهدي، ووسعيدة نميش، وفتيحة بريكسي، وباية مرابط، وعويشة حاج مسعود...الخ.

وقد تحمل هؤلاء مسؤوليات شاقة ونهضوا بأدوار استراتيجية مدنية وعسكرية، وضربن أروع الأمثلة في الشجاعة والتضحية، فقد لاقت عويشة حاج سليمان الجندية الشجاعة الشهادة في ناحية مسيردة عام 1957م، وتحملت زميلاتها مهام شاقة في مرافقة جيش التحرير الوطني والتمريض، وفي تنظيم النساء وتوجيههم وتثقيفهم ورعاية شؤونهم[23].

وفيما يلي نعرف بنضال بعضهن:

1- بركات انيسة درار: ولدت بندرومة، من عائلة عريقة مشهورة بالعلم، درست بتلمسان وبثانوية الثعالبية بالعاصمة.

التحقت بالثورة التحريرية بعد إضراب الطلبة في ماي 1956م، وعملت بالمنطقة الثانية من الولاية الخامسة بعد أن تلقت تكوينا عسكريا ووطنيا بقاعدة وجدة، نهضت بمهام عديدة كالتمريض والاتصالات والتعبئة في صفوف المواطنين، وأصيبت في إحدى الاشتباكات سنة 1957م بجروح بليغة. وبعد الاستقلال واصلت دراستها في الأدب العربي، وعملت أستاذة بجامعة الجزائر إلى جانب نشاطها في الكتابة الأدبية والتاريخية[24].

2- حاج سليمان عائشة (فوزية): الشهيدة من مواليد تلمسان سنة 1940م، من أسرة محافظة استطاعت أن تواصل دراستها إلى غاية المرحلة الثانوية.

وعندما أعلن إضراب الطلبة والثانويين في ماي 1956م التحقت رفقة زميلاتها في الثانوية الثعالبية بالثورة التحريرية، كلفت بالعديد من المهام النضالية والتحقت في نهاية سنة 1956م بمركز جيش التحرير الوطني بوجدة، حيث تلقت تكوينا عسكريا وسياسيا واختصت في التمريض، وبعد تأهيلها أرسلت إلى المنطقة الثانية من الولاية الخامسة، حيث نهضت بالعديد من المهام منها إعداد التقارير الإدارية والإرشاد الاجتماعي، استشهدت في سبتمبر 1957م بالمنطقة الثانية ناحية مسيردة قرب ندرومة عندما حوصرت رفقة عدد من المجاهدين في إحدى المغارات ورفضت الاستسلام؛ فقام العدو بتفجير المغارة بمن فيها. عرفت بصمودها وإقدامها وبروحها الثورية العالية، وهي صفات بوأتها مكانة هامة في أعين أفراد جيش التحرير وسكان المنطقة الثانية من الولاية الخامسة[25].

3- عوالي ويسي: ولدت سنة 1938م بأولاد ميمون، استطاعت أن تواصل دراستها الثانوية بمدينة الجزائر، واثر الاضراب الطلابي قررت الالتحاق بصفوف الثورة، نقلت الى القاعدة الخلفية رقم 15 بوجدة، حيث تلقت تكوينا في المجال السياسي والطبي والعسكري، وأرسلت الى المنطقة الثانية في اكتوبر 1956م، ونقلت بعدها الى المنطقة الثالثة أو الرابعة، وأصبحت مراقبة ومحافظة سياسية تشرف على مراقبة الوضع في كامل المنطقة الثانية[26].

4- فتيحة رمعون (رشيدة): ولدت المجاهدة عام 1932م، واصلت تعليمها وتحصلت على شهادة التمريض، عملت في المستشفى العسكري الفرنسي بوهران، قدمت الكثير من الخدمات لصالح الثورة، وفي سنة 1957م قررت الالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني، فعملت في المنطقة الثانية من الولاية الخامسة حيث نهضت بعدة ادوار، ممرضة ومجاهدة وموجهة اجتماعية، انقضت عددا من المجاهدين بخبرتها ومهارتها في التمريض، كما شاركت في عدة معارك، ومنها معركة جبل فلاوسن ومعركة وادي السباع، القي عليها القبض بمنطقة السواحلية في أوت 1957م، تعرضت لصنوف التعذيب المختلفة لكنها صبرت ورفضت الاعتراف بنشاطات الثورة وأسرارها في المنطقة، قام الجيش الفرنسي بتشويه جسدها وإفقاد ذاكرتها ومثل بها بين السكان[27].

5- نميش سعيدة: السيدة نميش المدعوة سعيدة ممرضة ومجاهدة في جيش التحرير الوطني، ولدت عام 1936م، والتحقت بصفوف الثورة وعمرها عشرون سنة، كانت تقوم بمعالجة المرضى والجرحى، شاركت في عدة معارك، وكانت مرافقة باستمرار للشهيدة فتيحة رمعون بالمنطقة الثانية، ونجت بأعجوبة من الاعتقال عندما اعتقلت رفيقتها رمعون[28].

6- باية مرابط (أمينة): من تلمسان، ولدت في حدود عام 1945م، تذكر أنيسة بركات أنها فرت من بيت أهلها يوم زفافها لتلتحق بصفوف جيش التحرير الوطني عام 1957م، أوكلت لها مهمة علاج المرضى فقامت بواجبها على أكمل وجه[29].

7- بريكسي فتيحة(حورية): ولدت في حدود عام 1947م، التحقت بصفوف الثورة وهي طالبة بوهران، عملت ممرضة، حيث كانت تقوم بمعالجة المرضى،-وقد عرفت باخلاصها في عملها وبوطنيتها الجامحة[30].

8- جميلة مهدي: ولدت بأولاد ميمون عام 1936م، استطاعت أن تواصل دراستها وأن تصبح معلمة في المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء، تلقت تكوينا في وجدة، وارسلت الى المنطقة الثانية أواخر عام 1956م، حيث عملت ممرضة بين صفوف المجاهدين والمدنيين بالمناطق الحدودية[31].

9- ولد قابلية زبيدة (صليحة): ولدت عام 1934م بمدينة طنجة المغربية، حيث كان والدها يعمل ضابطا في الدرك الفرنسي، تابعت دراستها الابتدائية بمعسكر مسقط رأس والدها، وواصلت تعليمها إلى أن تحصلت على شهادة البكالوريا، ثم التحقت بجامعة الجزائر لدراسة طب الأسنان.

نشطت في النضال الطلابي بجامعة الجزائر، وعملت على كسب تأييد الطلبة للثورة التحريرية، التحقت بالثورة إثر الإضراب الطلابي عام 1956م، وكلفت في المنطقة السادسة من الولاية الخامسة بالإشراف على المراكز الصحية وتكوين الممرضين، شاركت في العديد من المعارك، وقد كانت تعمل مساعدة لطبيب المنطقة السادسة الشهيد عبد الكريم دامرجي.

لقيت استشهادها في 19 سبتمبر 1958م رفقة ثلاثة مجاهدين، وذلك في كمين نصبه العدو في الطريق الرابط بين بني شقران وبوحنيفية[32].

10– حميدو مليحة: من عائلة محافظة، تلقت تعليمها في تلمسان، والتحقت بصفوف الثورة في وجدة، تلقت تكوينا سياسيا وعسكريا، وكلفت بعدة مسؤوليات أدتها بشجاعة وإخلاص، سقطت شهيدة في معركة ضد العدو بنواحي تلمسان.

وعلى ضوء ما سبق عرضه من نخب نضالية ساهمت بأدوار فاعلة في الحركة الوطنية وثورة التحرير نخلص لتسجيل ما يلي:

– ان منطقة تلمسان أنجبت كثيرا من المناضلين المخلصين، لعبوا أدوارا وطنية مختلفة في خدمة القضية الوطنية، وذلك منذ عهد محمد بن رحال في نهاية القرن التاسع عشر إلى مصالي الحاج زمن الحركة الوطنية وصولا الى مرحلة الثورة التحريرية، حيث برز بن بلة وسي لطفي وأبرز قيادات الولاية الخامسة.

– إن مختلف التيارات والفئات ساهمت بفعالية في الحركة الوطنية وثورة التحرير، ومنهم القادة الثوريون الاستقلاليون، ورجال الاصلاح والعلماء والمثقفين، وفئة الطلاب والنساء، وكل هذا أسهم في ثراء مساهمة التلمسانيين في الحركة الوطنية وثورة التحرير.

– إن البطولات المسجلة والصفحات النضالية المشرقة هي عنوان فخر واعتزاز لسكان المنطقة يسجلها التاريخ ونتذكرها اليوم، وفيها كثير من العبر والدروس عن استبسال نخب المنطقة في مواجه الاستعمار والتضحية من اجل الاستقلال.

الهوامش والتعليقات:

1-MERAD ALI , Apercus sur lenseignement des musulman en algerie 1880-1960, in confluent , n juin- juillet 1963, p 615

2– ابو القاسم سعدالله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، دار البصائر، الجزائر، ص ـــ ص 224ـــ 226

3– للتوسع انظر Mohammed benamar djebbari, op cit, p p 36 -46

4– معلومات استقيتها من تلاميذ الشيخ بندرومة، ومنهم الشيخ يخلف البوعناني وبركات انيسة درار، وهران، ديسمبر 2006، وكذا محاضرة للدكتورة انيسة بركات حول مدرسة التعليم الحر بندرومة

5– انظر عنه محمد ساري: من يتذكر محمد مصايف، جريدة الشروق اليومي، عدد 370 (22 جانفي 2002)، وفوزي مصمودي: الاديب الناقد الدكتور محمد مصايف الندرومي حياته واثارة، مداخلة في ملتقى ندرومة ونواحيها، الجمعية الموحدية.

6– انظر عنه جيلالي صاري: بروز النخبة المثقفة الجزائرية ، تر عمر المعراجي، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والاشهار، الجزائر، 2007، ص 219ـــ 240، وقد التقيناه مرارا وسجنا شهادته في ديسمبر 2006 بوهران.

7– نعتمد في ترجمته مذكراته، احمد ابن بلة، مذكرات أحمد ابن بلة، ترجمة العفيف الاخضر، دار الاداب ، بيروت، 1979،

8- Ahmed Bensadoun , Guerre de leberation, pareelle de vérités de la wilaya 5 Oranie, Editions EL BOUSTANE Teemcen , 2006, p p171 J177

9- معلومات جمعناها من شهادة المجاهد الطاهر الزرهوني، مقابلة شخصية، ندرومة، 24 مارس 20011

10- انظر حوار معه أجرته مجلة الراصد، يصدرها المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، عدد 3، (2002)

11- انظر عنه عبدالقادر جلالي: العقيد بن حلو بوحجر المدعو "سي عثمان" 1927ـــ 1977، مجلة عصور، يصدرها مخبر البحث التاريخي، جامعة وهران، عدد 1، 2002، ص 86ـــ 88

12- مقلاتي عبدالله: قاموس أعلام شهداء وابطال الثورة الجزائرية، منشورات بلوتو، الجزائر، 2009، ص ـــ ص 346ـــ347

13- مقلاتي عبدالله: المرجع نفسه، ص 523

14- معلومات جمعناها من أرشيف الثورة الجزائرية، بئر خادم ، الجزائر،

15- للتفصيل انظر عنه حوار اجراه معه محمد عباس، محمد عباس: خصومات تاريخية، دار هومة، الجزائر، 2010، ص ـــ ص 303ـــ 316

16- انظر اشارت متفرقة عنه في ، Ahmed Bensadoun op cit, p 171- 177

17- مقلاتي عبدالله: المرجع السابق، ص 194

18- عاشور شرفي: قاموس الثورة الجزائرية، دار القصبة، الجزائر، 2006، ص 159ـــ 160

19- مقلاتي عبدالله: المرجع السابق، ص 333ـــ 334

20- RAHAL (mansour) .les maquisads (pages du maquise des aurés durant la guerre de libération , Alger , auto-edition, impr .echourouq , 2000, 446 p.

21- مقلاتي عبدالله: المرجع السابق، ص 119ـــ120

22- مقابلة شخصية مع الطاهر الزرهوني، ندرومة، 24 مارس 2011

23- انيسة بركات درار: المصدر السابق، ص 42ـــ 43

24- شهادة قدمتها المجاهدة للباحث في عدة مقابلات جمعتنا

25- مقلاتي عبدالله: قاموس أعلام شهداء وأبطال الثورة الجزائرية، منشورات بلوتو، الجزائر، 2009، 212ـــ 213

26- انيسة بركات : المصدر السابق، ص 42

27- مقلاتي عبدالله: المرجع السابق، ص 298

28- انيسة بركات : المصدر السابق، ص 45

29- المصدر نفسه، ص 45

30- انيسة بركات : المصدر السابق، ص 45

31- أنيسة بركات درار: المصدر السابق، ص 42

32- مقلاتي عبدالله: المرجع السابق، ص ـــ ص 537ـــ 538